أتباع الديانة الحنيفية

المدرس عادل شابث جابر
كلية الآداب / جامعة بغداد

تمهيد :

من خلال تأمل النواحي الدينية أو المعتقدات التي سادت المجتمع العربي في شبه جزيرة العرب قبل الإسلام ، أعني القرن السادس الميلادي، وظهور فكر ديني توحيدي بين العرب ، على الرغم من اختلاف وتنوع المذاهب الدينية الأخرى ، ولا سيما ان شبه جزيرة العرب كانت تحيط بها أمم ذات ديانات ومعتقدات مختلفة في بلاد فارس وبلاد الروم ، وما ترتب عن ذلك من اتصال العرب بها عن طريق التجارة ، حتى دان بعض العرب بدياناتهم ، وكما هو معروف عن عملية انتقال عبادة الأصنام من بلاد الشأم إلى الحجاز عن طريق عمرو بن لحي [١]، الذي يعد أول من نصب الأصنام في مكة [٢] ، ومما أثار ذلك في الفكر الديني عند العرب قبلا الإسلام .

تأتي أهمية البحث من خلال إلقاء الضوء ، حول طبيعة معتقدات هؤلاء ؟ وطريقة عبادتهم ، وهل هم على طريقة واحدة في العمل وفي التفكير ؟ أم هم يشكلون حالة تبلور فكري نحو الدين ، بغية الوصول الى الحقيقة ، أم هم بمصاف أنبياء في مجتمعاتهم ، شكلوا عنصراً مغير لأبناء مجتمعهم ودياناتهم ؟

والديانة الحنيفية التوحيدية أحدى تلك الديانات التي كان يدين بها بعض أفراد من العرب ، والحنيف في اللغة : يعني الميل ، المسلم الذي يتحنف عن الأديان ، أي يميل إلى الحق ، وقيل هو الذي يستقبل قبلة البيت

الحرام على ملة إبراهيم (عليه السلام) [٢] وفي رواية كل من اسلم لأمر الله تعالى ولم يلتو ، فهو حنيف [٤] ، والمراد بالمعنى إن إبراهيم (عليه السلام) حنف إلى دين الله ودين الإسلام [٩] .

وروي ان العرب كانوا يعدون كل من أختن وحج البيت هو حنيف[٦]

وقد أشار القرآن الكريم إلى جماعة من العرب لم تعبد الأصنام ، ولم تكن من اليهود ولا النصارى ، وإنما اعتقدت بوجود إله واحد عبدته كما في قوله (وقالوا كونوا هودا أو نصارى) [٧] . وكذلك جاء ذكر الحنيفية والحنفاء في كتب الحديث [٨].

وللمستشرقين بحوث في أصل . الحنيفية ومعناها وورودها عند العرب قبل الإسلام ، منهم من يرى انها لفظة آرامية [٩] ، وقد كانت معروفة عند النصارى ، وأخذها العرب ، ومنهم من يقول ان اللفظة من أصل عبراني هو (تحينوت) ومعناها التحنث بالعربية ، وذلك لما لهذه اللفظة من صلة بالزهد والزهاد [١٠].

ولا بد من الإشارة ان العرب من عدنان وقحطان ، كانوا قبل ظهور عمر بن لحي الخزاعي ، يتعبدون بشريعة إبراهيم الخليل (عليه السلام)، وهي الحنيفية التي جاء بها محمد (صلى الله عليه واله وسلم) فكانوا يعتقدون ان الله تعالى واحد لا شريك له ولا وزير ولا معين ولا ظهير[١١]. لذلك عند البحث عن الذين مهدوا للتوحيد الذي يدعوا القرآن اليه ، فأننا يجب أن نلجأ الى القرآن نفسه ، فالكتاب الكريم يشير الى ان توحيده مستمد من بلاد العرب ، وهنا نلمس التطور والتدرج الذي أنتهى الى النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم) وختم به ، فهو خاتم الأنبياء [١٢].

لقد فشت دعوة عمرو بن لحي بينهم ، وانتشرت حتى دخل الكثير من العرب فيها ، وقل عدد من حافظ على دين آباءه ، دين إبراهيم والمراعي لأحكام دين التوحيد الحنيف [١٣].

وردت لفظة (حنيفاً) في عشرة مواضع من القرآن الكريم [١٤]، فضلاً عن ذكر كلمة حنفاء في آيتين[١٥].

وللعلماء في الحنيفية أربعة أقوال :

١. حج البيت الحرام .

٢. أتباع الحق .

٣. أتباع إبراهيم فيما أتى به من الشريعة التي صار بها إماماً للناس بعده من الحج والختان .
٤. الإخلاص لله وحده والإقرار بالربوبية والإذعان للعبودية [١٦].

ومن الجدير بالذكر ان أهل الأخبار لم يكونوا على بينة بأحوال الحنيفية ، وبآرائها وقواعدها من حيث الأحكام والأصول ، وأنهم خلطوا في بعض الأحيان فيما بينها وبين الرهبنة ، لا سيما رهبنة النصرانية ، فأدخلوا فيها من يجب إخراجهم عنها ، لأنهم كانوا نصارى، ومن هؤلاء (قيس بن ساعدة الأيادي ، ورقة بن نوفل ، عثمان بن حويرث) فقد نصوا نصوصاً صريحة على أنهم كانوا من العرب المتنصرة ، ثم نجدهم مع ذلك يدخلونهم في جملة الأحناف)[١٧].

والحنفاء كما يفهم كانوا طرازاً من النساك ، انصرفوا إلى التعبد للإله الواحد الأحد ، إله إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام) ، ساحوا في البلاد بحثاً عن دين إبراهيم ، إذ وصل زيد بن عمرو بن نفيل إلى بلاد الشام والبلقاء ووقف على اليهودية والنصرانية، فلم ير في الديانتين ما يريد ، وقد زيد هذا يطلب دين الحنيفية دين إبراهيم (عليه السلام) قبل ان يبعث الله النبي محمد (صلى الله عليه واله وسلم)[١٨].

ويلاحظ ان جميع من ذكرتهم المصادر في الديانة الحنيفية كانوا ممن يجيد القراءة والكتابة ، إذ كانوا يشترون الكتب ويراجعونها ويتابعون أخبار أهل الآراء والمذاهب والديانات ، ولبعض منهم علم باللغات الأعجمية مثل السريانية والعبرانية ، وقد حصلوا على ذلك من الكتب التي كانت تقع بين أيديهم ، من أسفارهم إلى العراق وبلاد الشأم، ومن اتصالهم بالرهبان وبرجال الكنائس واليهود ، فهم بالنسبة لذلك الوقت الطبقة المثقفة التي نادت بالإصلاح ورفع مستوى العقل ، فضلا عن نبذ الأساطير والخرافات، وذلك بالدراسة والتأمل وقراءة الكتب[١٩].

وقد أشارة المصادر الى ان نفراً من العرب كرهوا عبادة الأوثان ، وسفهوا أحلام المتعبدين لها ، إذ وجدوا ان من الحمق التقرب الى حجر لا يضر ولا ينفع ، ولكنهم لم يدخلوا في عداد الأحناف [٢٠].

وهناك من يجعل مسيلمة الكذاب [٢١] يدعو إلى عبادة الرحمن قبل مبعث النبي (صلى الله عليه واله وسلم) ، إذ ارتبطت عبادة الرحمن به

في بلاد اليمن [٢٢]. والحقيقة لم تظهر في بلاد اليمن ديانة توحيدية كتلك التي وجدت في شبه الجزيرة العربية (أعني بلاد الحجاز) بل كانت ديانة توحيدية متذبذبة بين الديانتين السماويتين المسيحية واليهودية، ولعلها كانت تعبيراً عن مذهب توحيدي شبيه بمذهب الأحناف وإرهاصاً له [٢٣] ولا اعتقد ذلك وإنما تدل مثل هذه الدعوات تعبيراً عن وعي أصحابها لمرحلة الدعوة المحمدية وما ترتب عنها من ازدياد نفوذ الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بين القبائل العربية ، لذلك فدعوة مسيلمة وسجاح [٢٤] الأسود العنسي [٢٥] كانوا يبغوا من ذلك سيادة أقوامهم والاستفادة منهم ، بقدر ما هو بعيد عن روح الدعوة والوحي المنزل التي تميزت به دعوة الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) .

ادخل المسعودي بعض الأحناف في جماعة أهل الفترة ممن كان بين المسيح ومحمد ومن أهل التوحيد ، ممن يقر بالبعث ثم قال : (وقد اختلف الناس فيهم ، فمن الناس من رأى أنهم أنبياء ، ومنهم من رأى غير ذلك) [٢٦]. وكان من بينهم (حنظلة بن صفوان ، وخالد بن سنان العبسي ، ورئاب الشني ، وأسعد أبو كرب الحميري ، وقس بن ساعدة الأيادي ، وأمية بن أبي الصلت الثقفي ، وورقة بن نوفل ، وعداس مولى عينة بن ربيعة الثقفي ، وابو قيس " صرمة بن أبي أنس الأنصاري " وابو عامر الأوسي ، وعبد الله بن جحش الأسدي ، وبحيرة الراهب) [٢٧].

والأحناف وورد ذكرهم في المصادر العربية هم (قس بن ساعدة الأيادي ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وأمية بن أبي الصلت ، وارباب بن رئاب ، وسويد بن عامر المصطفى ، واسعد ابو كرب الحميري ، ووكيع بن زهير الأيادي وعمير بن جندب الجهني ، وعدي بن زيد العبادي ، وأبو قيس صرمة بن أبي أنس ، وسيف بن ذي يزن وورقة بن نوفل القرشي ، وعلاف بن شهاب التميمي ، والمتلمس بن أمية الكناني ، وزهير بن أبي سلمى ، وخالد بن سنان العبسي ، وعبد الله القضاعي ، وعبيد بن البرص ، وكعب بن لؤي بن غالب) [٢٨].

أما قس بن ساعدة بن عمرو بن شمر بن عدي بن مالك [٢٩]يعد من الشعراء الحكماء [٣٠]، وكان من المعمرين عاش ثلاث مئة سنة[٣١]وأول مت تأله من العرب، أي تعبد [٣٢]زعم الإخباريون انه ذهب الى قيصر ملك الروم واتصل به ، وقد أكرمه الأخير بعد ان سأله قيصر (ما أفضل المعرفة ؟ قال : معرفة الرجل نفسه . قيل له : فما أفضل العلم ؟ قال : وقوف المرء عند علمه ! قيل له : فما أفضل المروءة ؟ قال : استبقاء الرجل ماء وجهه.[٣٣].

وقس أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية، وأمل من توكأ عند خطبته على سيف أو عصا ، وأول من علا على شرف وخطب عليه ، وأول من قال : أما بعد ، وأول من كتب إلى (فلان بن فلان) [٣٤].

وذكر الجاحظ قساً وقومه قال : (ان له ولقومه فضيلة ليست لأحد من العرب ، لأن رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، روى كلامه وموقفه على جملهِ بعكاظ ، وموعظته وعجب من حسن كلامه ، وأظهر تصويبه ، وهذا شرف تعجز منه الأماني ، وتنقطع دونه الآمال، وإنما وفق الله تعالى ذلك لقس لاحتجاجه للتوحيد ولإظهاره الإخلاص وأيمانه بالبعث ومن ثم كان قس خطيب العرب قاطبة)[٣٥].

ومن خطبة له قال فيها : " أيها الناس اجتمعوا واسمعوا ، وعوا، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت ، ليل داج . وسماء ذات أبراج ، بحار تزخر ، ونجوم تزهر ، وضوء وظلام ، وبر وآثام ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب ، مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ، أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا وإله قس بن ساعدة ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلكم زمانه ، وأدرككم أوانه ، فطوبى لمن أدركه فاتبعه وويل لّمن خالفه "[٣٦]وهو القائل: " يا معشر أياد ، أين ثمود وعاد ، وأين الآباء والأجداد ، أين المعروف الذي لم يشكر ، والظلم الذي لم ينكر. اقسم قس قسماً بالله ، إن لله لدينا هو أرضى له من دينكم هذا " [٣٧].

وأما زيد بن عمر بن نفيل بن عبد العزى بن رباح بن عبد الله بن قرظ بن رزاح بن كعب بن لؤي القرشي[٣٨]. وأمه جيداء بنت خالد بن جابر بن حبيب بن فهم ، كانت زوجة لنفيل بن عبد العزى ، فولدت له

الخطاب أبا عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) ثم مات فتزوجها ابنه عمرو ، فولدت له زيداً ، وكان هذا نكاحاً ينكحه أهل الجاهلية [٣٩] لم يدخل في دين اليهودية ولا النصرانية ، نهى عن قتل المؤودة ، وامتنع من الذبح للأنصاب ، ومن أكل الميتة والدم وما ذبح على النصب [٤٠]. وذكر ابن حبيب ، ان زيد أول من عاب على قريش ما هم عليه من عبادة الأوثان [٤١].

وكان سبب خروج زيد على قومه ، انه حضر مع ورقة بن نوفل وعبد الله بن جحش وعثمان بن حويرث ، عيداً من أعياد قريش ، كانوا يعظمونه ، ويعكفون عنده في كل سنة ، واتفق زيد مع أصحابه في عدم التكلم ، ثم قال : (قائلهم والله لو تعلمون ما قولكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما وثن يعبد ؟ لا يضر و لا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم ث، ثم قال قائلهم والله لو تعلمون ما قولكم على شيء ، لقد أخطئوا دين إبراهيم وخالفوه ، ما وثن يعبد ؟ لا يضر و لا ينفع ، فابتغوا لأنفسكم فأنكم والله ما أنتم على شيء ، فخرجوا يطلبون ويسيرون في الأرض يلتمسون أهل الكتاب) [٤٢].

خرج زيد بن عمر يريد بلاد الشأم سأل عن دين يتبعه ، فلقي عالماً يهودياً ، فسأله عن دينهم ، فقال : (لعلي أدين بدينكم فأخبرني بدينكم ؟ فقال اليهودي : أنك لا تكون على ديننا حتى تأخذ بنصيبك من غضب الله . فقال زيد بن عمرو لا أفر إلا من غضب الله وما احمل من غضب الله شيئاً أبداً وأنا أستطيع ، فهل تدلني على دين ليس فيه هذا؟ قال : ما اعلمه إلا ان يكون حنيفاً . قال : وما الحنيف ؟ قال: دين إبراهيم . فخرج من عنده وتركه) [٤٣].

روي انه قال : (يا معشر قريش ، والذي نفس زيد بن عمرو بيده ، ما أصبح منكم من أحدُ على دين إبراهيم غيري ، ثم يقول : اللهم لو أني أعلم أي الوجوه أحب إليك عبدتك به ، ولكني لا أعلمه ، ثم يسجد على راحلته) [٤٤]. وفي رواية أخرى انه قال : (أني فارقت قومي واتبعت ملة إبراهيم وما كان يعبد إسماعيل من بعده كان يصلي إلى هذه البينة ، وأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل ، ثم من ولد عبد المطلب ، وما

أراني أدركه وأنا أؤمن به وأصدقه وأشهد أنه نبي الحديث .... فأن طالت بك مدة فأقرأه مني السلام) [٤٩].

وهو القائل :

أسلمت وجهي لمن أسلمتْ له المزن تَحمل عذباً زلالا [٤٦]

وذكر ابن كثير ان زيد كان يراقب الشمس ، فإذا زالت استقبل الكعبة ، فصلى وسجد سجدتين ، ثم يقول : هذه قبلة إبراهيم وإسماعيل لا أعبد حجراً ولا أصلي له ولا آكل ما ذبح له ، ولا استقسم بالأزلام ، وإنما أصلي لهذا البيت حتى أموت ، وكان يحج فيقف بعرفه ، وكان يلبي ، فيقول : لبيك لا شريك لك ولا ند لك . ثم يدفع من عرفة ماشيا وهو يقول : لبيك متعبداً مرقوقا[٤٧].

ان حرص زيد على الحنيفية وتمسكه الشديد ، دفعه على السفر الى بلاد شاسعة بحثاً عنها وعن مبادئها الصحيحة ، مبادئ إبراهيم الخليل (عليه السلام) ، فذهب الى الموصل والجزيرة ، ثم طاف في بلاد الشأم حتى انتهى الى راهب قرية ميفعة [٤٨]بيعته من أرض البلقاء أو أيلة ، فسأله عما قدم من أجله فأرشده إلى ان ما يبتغيه ويراه لا يجده في النصرانية فغادره وتركه ، وعاد يريد مكة ، فلما توسط بلاد لخم أو جذام عدو عليه وقتلوه [٤٩]، قبل المبعث بخمس سنين [٥٠]، ورويه انه لما بلغه خبر رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) ، أقبل من الشأم يُريدُه فقتله أهل ميفعة [٥١]. وعنه قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : " يأتي يوم القيامة أمة وحده " [٥٢].

ويأتي بعد ذلك أمية ابن أبي الصلت، عبد الله بن أبي ربيعة بن عوف بن عقدة بن غيرة[٥٣]وهو ثقيف بن منبه بن بكر بن هوازن[٥٤]واسم أمه رقية بنت عبد شمس بن عبد مناف [٥٥].

يعد أمية بن أبي الصلت من أوفر الحنفاء حظاً في بقاء ذكره ، فقد بقي كثيراً من شعره وعن طريقه حفظ قسط كبير من أخباره ، ولا سيما انه عاش ما بعد المبعث ، واتصاله بتأريخ النبوة والإسلام اتصالاً مباشراً وملائمة شعره بوجه عام لروح الإسلام [٥٦].

سافر أمية الى بلاد الشأم فمر بكنيسة ، وكان معه جماعة من العرب وقريش ، ثثم رأى كنيسة فدخل فيها ، فخرج متغيراً لونه ، وبعد رجوعه

من بلاد الشأم مر كذلك بهذه الكنيسة ، فخرج بحالة أسوأ من الأولى ، فعندما سأله أصحابه عن سر هذا انزعاجه وتغيره ، فقال لهم (إن هاهنا راهباً عالماً أخبرني أنه تكون بعد عيسى عليه السلام ست رجعات ، وقد مضت منها خمس وبقيت واحدة ، وأنا أطمع في النبوة وأخاف أن تخطئني ، فأصابني ما رأيت ، فلما رجعت ثانية أتيته فقال : قد كانت الرجعة وقد بعث نبي من العرب ، فيئست من النبوة ، فأصابني ما رأيت ، إذ فاتني ما كنت اطمع فيه) [٥٧].

قرأ أمية كتاب الله عز وجل الأول ، فكان يأتي في شعره بأشياء لا تعرفها العرب فمنها قوله : قمر وساهور يسل ويغمد ، وكان يسمي الله عز وجل في شعره السلطيط فقال: والسلطيط فوق الأرض مقتدر[٥٨].

كان أمية قرأ كتب الأقدمين، ورغب عن عبادة الأوثان [٥٩] ولبس المسوح تعبداً، وكان ممن ذكر إبراهيم وإسماعيل والحنيفية، وحرم الخمر، وشك في الأوثان وكان محقاً، والتمس الدين وطمع في النبوة[٦٠] وكان يخبر بأن نبياً يبعث من العرب، فكان يرجوا أن يكون[٦١].

لم يرتضي أمية من الأديان غير دين الحنيفية ، وأنه قال ذلك في شعره :

كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفية زور[٦٢]

ويعظم الله في شعره ويكبره ويحمده ، ويرى انه إله واحد لا شريك له ، وان من يشرك به أحد فقد ظلم نفسه [٦٣].وروي إن أمية قدم على أهل مكة : باسمك اللهم ، فجعلوها في أول كتبهم مكان (بسم الله الرحمن الرحيم) [٦٤].

ومن أهم آثار أمية بن أبي الصلت ديوان من الشعر ضم أكثر ما نسب اليه من شعر ، كما ان بطون كتب الأدب والأخبار أشعار أخرى لم يرد ذكرها في ديوانه ، ومعظم شعره عن الدين والآخرة وعن الجنة والنار ، والحساب والكتاب ، وقد تضمن إشارات الى حوادث وقعت في أيامه ، أو في أيام قريبة من أيامه مثل قصة الفيل كما تضمن بعضاً من قصص الأنبياء [٦٥].

اختلفت المصادر التاريخية في قضية إسلام أمية ، أو كفره ، قال صاحب الإصابة (كان أمية آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فقد

الحجاز ليأخذ ماله من الطائف ويهاجر ، فلما نزل بدراً قيل له : إلى أين يا أبا عثمان ، فقال : أريد أن أتبع محمداً . فقيل له ، هل تدري ما في هذا القليب ؟ قال لا . قيل شيبة وربيعة وفلان وفلان . فجدع أنف ناقته وشق ثوبه وبكى وذهب الى الطائف فمات بها) [٦٦]. وهذه الرواية في الحقيقة لا تتفق مع العقلية التي عرف بها هذا الرجل ، إذ ليس من المعقول أنه لم يكن على بينة من أثار معركة بدرة ، أو عدم معرفته بوفاة أخواله ، فضلاً عن ذلك فقد أشار الأصفهاني في قوله : (كان أمية يحرض قريشاً بعد وقعة بدر وكان يرثي من قُتل من قريش في وقعة بدر) [٦٧]

إذ قال : ماذا ببدرٍ بالعقنـ ـقل من مرازبة جحاجح
هلا بكيت على الكَـرا م بني الكرام أولى الممادح [٦٨]

واعتقد لهذا السبب لم يعد ابن حبيب أمية بن أبي الصلت في أسماء الذين رفضوا عبادة الأوثان [٦٩].

إلا ان الكثير من أصحاب الأخبار يتفقون على أنه مات كافراً في سنة تسه من الهجرة في الطائف [٧٠]قبل ان يسلم قومه الثقفيون ، ولم يمت على دين الوثنيين من قومه ، بل مات كافراً بالديانتين [٧١]. قال فيه رسول الله (صلى الله عليه واله وسلم) : آمن شعره وكفر قلبه[٧٢]بعد ان سمع قصيدة له كان مطلعها :

الحمد لله مُمسانا ومُصبحنا بالخير صبحنا ربي ومسانا
رب الحنيفة لم تنفد خزائنها مملوءة طبق الافاق سلطانا
ألا نبي لنا منا فيخبرنا ما بعد غايتنا من رأس محيانا
بينا يرينا آباؤنا هلكوا وبينما نقتني الأولاد أفنانا
و قد علمنا لو أن العلم أن سوف يلحق أخرنا بأولنا

فقال النبي (صلى الله عليه وسلم): (إن كاد أمية ليسلم) [٧٣].

اما عثمان بن حويرث بن أسد بن عبد العزى [٧٤] وكانت أمه نصرنية تدعى سبحاء حبشية [٧٥]، وقيل ان والدته هي (تماضر بنت عمير بن أهيب بن حذافة بن جمح) [٧٦] .كان عثمان مغاضباً لديانة قومه ، بعد ان يأس من ذلك ، عزم الرحيل الى بلاد قيصر ، فتنصر[٧٧] الذي أكرمه ، بعد أن منحه لقب (بطريق) ، وأراد تنصيبه ملكاً ، إلا ان قومه أبو عليه [٧٨].

يعد عثمان بن الحويرث من أشراف (بني أسد) من قريش[٧٩] وقد كان مع خويلد بن أسد على رأس بني أسد في حرب الفجار [٨٠]

كان هجاءً لقريش ، عالماً بمثالبها ، وله حديث في المغازي [٨١]، كان شيبة بن ربيعة بن عبد شمس نديماً لعثمان بن حويرث تنصرا جميعاً ، وقتل شيبة يوم بدر كافراً [٨٢].

توفى على أثر السم الذي دسه له السم عمرو بن جفنة الغساني [٨٣]ومات على دين النصرانية [٨٤]. وكانت وفاته قبل المبعث بثلاثين سنة[٨٥].

أما ورقة بن نوفل بن أسد بن عبد العزى [٨٦]، وهو ابن عم خديجة بنت خويلد بن اسد بن عبد العزى [٨٧].

ونوفل من اعتزل عبادة الأصنام ، وطلب الدين وامتنع عن أكل الذبائح [٨٨]وعدً في جملة المتنصرين ، فقد ذكر انه تنصر[٨٩] واستحكم في النصرانية ، وقرأ الكتب ومات عليها [٩٠] وتبحر بالتوراة والأنجيل[٩١] عُرف بعقله الصحيح ، ان قريش أخطأت دين إبراهيم ، فوحد الله واجتهد في طلب الحنيفية دين إبراهيم [٩٢].

كان يكتب الكتاب العربي ، فكتب بالعربية من الأنجيل ما شاء ان يكتب [٩٣]. وعمر طويلاً حتى عمى [٩٤].

روي ان ورقة كان يمر ببلال بن رباح في تعذيبه نتيجة إيمانه بالدعوة المحمدية ، إذ قال ابن هشام : (كان أمية بن خلف بن وهب بن جمح يخرجه (إذا حميت الظهيرة ، فيطرحه على ظهره في بطحاء مكة ، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره ثم يقول : لا والله لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد ، وتعبد الات والعزى ، فيقول وهو في ذلك البلاء أحدُ أحد ... كان ورقة يمر به فيقول أحدُ أحد والله يابلال ! ثم يقبل على أمية بن خلف .. فيقول أحلف بالله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً) [٩٥].

وورقة هو الذي بشرى خديجة بنبوة محمد (صلى الله عليه واله وسلم) إذ قال لها : (لئن كان هذا حقاً ياخديجة ، ان محمد لنبي هذه الأمة ، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي ينتظر ، وهذا زمانه) [٩٦].

لا يعرف عن حياة ورقة في ايام شبابه شيئاً ، ولعله كان يعين أهله أو أقاربه في اتجارهم مع بلاد الشأم أبو اليمن شأن أكبر شبان أهل مكة آنذاك[٩٧].

ادرك ورقة الإسلام ، ومات في فترة نزول الوحي ان تنزل الفرائض والأحكام [٩٨]

الخاتمة

تعد حقبة ما قبل الإسلام في تاريخ العرب ، من الحقب المهمة ، من حيث النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، لاسيما إنها مثلت مرحلة انتقالية في حياة العرب .

سادت هناك نظم سياسية مختلفة ، وشهدت المنطقة هجرة للقبائل العربية بين الشمال والجنوب ، إثر انهيار سد مأرب ، حملت هذه القبائل عاداتها وتقاليدها ، وسمت تاريخها في المناطق التي حلت بها ، أعني العراق ، والحجاز ، وبلاد الشأم .

كان أبرز ما في حياة هذه القبائل ، الدين ، وطرق تعبدها ، على الرغم من أن المنازعات فيما بينها ، التي أخذت وطراً كبير من حياتها، دفعت فيه ثمناً غالياً ، ولا سيما موضوع القتل والثارات .

والدين بتعبير بسيط إيمان بوجود قوى خفية تحكم العالم ، يرافق ذلك تصديق باللسان إلا ان الحياة التي عاشوها ، فضلاً عن قسوة الطبيعة ، بعدت بهم عن الفهم الحقيقي للدين وكيفية التوصل إلى عباد الإله الواحد، بالطرق التي تبعدهم عن الوثنية وما شاكلها .

إذ ان الضبابية التي سادت المجتمع العربي هذه ، حالت بينه وبين الفهم الحقيقي للدين ، نتيجة لذلك ظهرت مجموعة بسيطة ، أو نفر من العرب عبروا عن ذلك الفهم ، بشكل يوصل الى الحقيقة بعيدة عن كل التكلف والتصنع . حاولوا ان يشقوا طريق بين هذا الكم الهائل من الأفكار والمعتقدات ولا سيما وان هذه المرحلة كانت اليهودية والنصرانية تأخذ أبعادها الطبيعية داخل المجتمع العربي .

رجال تنزهوا عن عبادة الأوثان ، سفهوا عبادة أبناء مجتمعهم ، عاشوا حالة الاغتراب بمعناها الدقيق لها ، أعرضوا عن عادات قومهم، وثورة على عقائدهم ، وترقب لحدوث تطور وإصلاح ، وهم في الغالب في مكة .

لقد مهدوا لدعوتهم تلك التي اشاعوها بين بني قومهم ، فجلبت عليهم السخط والغضب ، وبعد ان أدرك عدم الجدوى من البقاء داخل مجتمعاتهم ، حزموا أمتعتهم ، يطوفون في البلدان المجاورة بحثاً عن الدين الحقيقي . أو اللجوء الى أماكن آمنة .

والغريب في هؤلاء الحكماء حسبما أشارة المصادر التي بين أيدينا ، إنهم كانوا على علم بظهور نبي في هذه الديار ، يبعث الله على يديه الدين المكمل للديانة الحنيفية التي جاء بها إبراهيم وإسماعيل (عليهما السلام).

عاشوا حياتهم بعيداً عن أقوامهم ، وكأني بهم يدعون إلى عبادة الإله الواحد لكن الطرق كانت بهم قصيرة ، أو ان تنكرهم للواقع لم يستوعب معطيات المرحلة التي يعيشونها ، أعني مرحلة المخاض الديني التي تشهدها الجزيرة العربية ، وان عبروا عن تعبدهم برفضهم للواقع الذي عاشوه ، ومن ثمة جاء الرسول محمد (صلى الله عليه واله وسلم) ليرسم طريق الدين الجديد الذي كانوا يبحثون عنه ، ويشهد لهم بوحدانيتهم ، إلا ان الزمن قد فات ، وهم قد رحلوا إلى الرفيق الأعلى ، حتى باتت أفعالهم وأقولهم يتذكرها الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ويترحم عليه .

وأخيراً استطعنا ان نعرف هؤلاء الحنفاء ، بما زودت به المصادر، الا إن هناك جوانب كثيرة من حياتهم غفلت عنها ، وأهمها إنها لم توضح طريقة تعبدهم وصلاتهم ، سوى ان بعضهم كان يصلي عند الكعبة ، الا انهم لم يذكروا الطريقة التي كانوا يقومون بها ، فضلا عن تعاليمهم ، والأماكن التي كانوا يتعبدون فيها .

الهوامش

(١) عمرو بن لحي بن قمعة بن خندف ، ابو خزاعة . ابن حزم ، أبو محمد ، علي بن أحمد بن سعيد (ت ٤٥٦هـ) جمهرت انساب العرب ، ط٣ ، راجعه نخبة من العلماء ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ٢٠٠٣ ، ص٢٣٤ . خرج عمرو بن لحي من مكة إلى الشام في بعض أموره ، فلما قد مآب من أرض البلقاء ، وبها يومئذ العماليق ، رآهم يعبدون الأصنام ، فقال لهم : ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدون ؟ قالوا : هذه أصنام نعبدها ، فنستمطرها ، فتمطرنا ، ونستنصرها ، فتنصرنا ؟ فقال لهم : افلا تعطوني منها صنماً ، فأسير به إلى أرض العرب فيعبدوه ، فأعطوه صنماً يقال له هبل ، فقدم به مكة ، فنصبه ، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه . ابن هشام ، السيرة النبوية ، حققها وضبط شرحها مصطفى السقا وآخرون ، مصطفى البابي الحلبي وأولاده ، مصر ، ج١ ، ص٧٩ ؛ اليعقوبي ، احمد بن اسحاق بن جعفر بن وهب بن واضح اليعقوبي (ت ٢٩٢هـ) ، تاريخ اليعقوبي ، ط١ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ج١ ، ص٢١٧ .

(٢) الأزرقي ، ابو الوليد ، محمد بن عبد الله بن أحمد (ت هـ) ، أخبار مكة وما جاء فيه من الآثار ، تحقيق رشدي الصالح ملحسن ، دار الأندلس ، بيروت ، ١٩٩٦ ، ج١ ، ص١٧٦ .

(٣) ابن منظور،أبو الفضل، جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري (ت هـ) ، لسان العرب ، دار صادر ، ج٩ ، (مادة حنف) .
(٤) ابن منظور ، المصدر نفسه ، ج٩ ، (مادة حنف) .
(٥) ابن منظور ، المصدر نفسه ، ج٩ ، (مادة حنف) .
(٦) الطبري ، ابو جعفر ، محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) البيان في تفسير القرآن ، ط٤ ، دار المعرفة ، بيروت ، ١٩٨١ ، ج٣ ، ص١٠٤ وما بعدها .
(٧) سورة البقرة : آية ٢ .
(٨) علي ، جواد ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ط١ ، دار الملايين ، بيروت ، ج٦ ، ص٤٥٠ .
(٩) نيلسن ، ديتلف وأخرون ، التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين علي ، راجعه زكي محمد حسن ،مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، (د ، ت) ، ص٢٤٣.
(١٠) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٥٣ .
(١١) الآلوسي ، محمود شكري البغدادي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ط٣ ، عنى بشرحه محمد بهجة الأثري ، دار الكتاب العربي ، القاهرة ، ج٢ ، ص١٩٤ .
(١٢) نيلسن ، التاريخ العربي القديم ، ص٢٤٣ .
(١٣) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٥٠ .
(١٤) البقرة : ٢ ، آل عمران ٣ ، ٦٧ ، ٩٥ ، النساء ، ٤ ، ١٢٥ ، الانعام ، ٦، ٧٩ ، ١٦١ ، يونس ، ١٠ ، ١٠٥ ، النحل ، ١٦ ١٢٠ ، الروم ، ٣٠ .
(١٥) الحج ، ٣١ ، البينة ، ٥ .
(١٦) الرازي ، فخر الدين بن ضياء الدين عمر (ت ٦٠٤هـ) ، تفسير الفخر الرازي ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ج٤ ، ص٨٩ وما بعدها .
(١٧) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٥٣ .
(١٨) الآلوسي ، بلوغ الرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ص٢٤٧ .
(١٩) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٥٧ .
(٢٠) المصدر نفسه ، ج٦ ، ص٤٥٧ .
(٢١) مسيلمة الكذاب ، مسيلمة بن ثمامة بن كثير بن حبيب بن الحارث بن عبد الحارث بن عدي بن حنيفة . من حنيفة بن لجم ، يكنى أبا مامة . ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، ص ٣١٠ ؛ وكان صاحب نيرنجات ، وهو أول من وصل جناح المقصوص من الطير ، فأتبعه على ذلك خلق كثير . ابن قتيبة ، ابو محمد

عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ) ، المعارف ، ط١ ، تحقيق ثروت عكاشة ، قم ، ١٣١٥هـ ، ص٤٠٥ .

(٢٢) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ٢٢٢ .

(٢٣) بافقيه ، محمد عبد القادر وآخرون ، مختارات من النقوش اليمنية القديمة ، ادارة الثقافة ، تونس ، ١٩٨٥ ، ص ٥٧.

(٢٤) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٤ ، ص ٢٢٢ .

(٢٥) الأسود العنسي : عبهلة بن كعب بن حارث بن عمرو بن عبد الله بن سعد بن عنس بن مذحج . عرف بالأسود العنسي ، يكنى بـ(ذو الحمار) ، ابن عساكر، ابو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ت ٥٧١هـ) ، تاريخ مدينة دمشق ، دار الفكر ، بيروت ، ١٤١٥هـ ، ج٤٩ ، ص٤٨٣ .

(٢٦) المسعودي ، ابو الحسن ، علي بن الحسين (ت ٤٥٣هـ) ، مروج الذهب ومعادن الجوهر ، دار الأندلس ، بيروت ، ج١ ، ص٧٨ .

(٢٧) المصدر نفسه ، ج١ ، ص٧٨ .

(٢٨) الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ٢٤٤ وما بعدها ؛ المسعودي ، المصدر نفسه ، ج١ ، ص٧٨ .

(٢٩) الآلوسي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ٢٤٦ .

(٣٠) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٤٥.

(٣١) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٦٤ .

(٣٢) الآلوسي ، بلوغ الأرب ص٢٤٥.

(٣٣) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ج٢ ، ص٢٥٤.

(٣٤) المسعودي ، مروج الذهب ، ج٢ ، ص١٠٢.

(٣٥) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٥٢.

(٣٦) الأصفهاني ، أبو الفرج (ت ٤٥١ هـ) ، الأغاني ، ط٣ ، تحقيق عبد الستار أحمد فراج ، دار الثقافة ، بيروت ، ١٩٧٥ ، ج١٥ ، ص١٩٢.

(٣٧) الجاحظ ، البيان والتبيين ، ج١ ، ص٥٢.

(٣٨) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص١٥٠ .

(٣٩) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص١١٧.

(٤٠) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٢٣٩.

(٤١) ابن حبيب ، ابو جعفر محمد (ت ٢٤٥هـ) ، المحبر ، رواية أبي سعيد الحسن بن الحسن السكري ، اعتنى بشرحه ، إيلزه ليختن شتيتر ، دار الآفاق الجديدة ، بيروت (د . ت) ، ص١١٧ .

(٢) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٧٠.
(٣) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص١٢١ .
(٤) الأصفهاني ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١٢١ .
(٥) الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ص٢٤٧.
(٦) ابن قتيبة ، المعارف ، ص٢٤٥ .
(٧) البداية والنهاية ، ج٢ ، ص٢٣٩ ؛ علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٧٥ .
(٨) ميفعة : ميفعة : قرية من أرض البلقاء من الشأم . البكري ، ابو عبيد ، عبد الله عبد العزيز البكري الأندلسي (ت ٤٨٧ هـ) ، معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع ، ط١ ، حققه ، جمال طلبة ، دار الكتب العلمية ، ١٩٩٨ ، ج٤ ، ١٣٣ .
(٩) ابن سعد ، الطبقات الكبرى ، ج٣ ، ص٢٧٦ .
(١٠) الآلوسي ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص١٤٧.
(١١) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص١٥١.
(١٢) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص١٢١.
(١٣) ابن حزم ، جمهرت انساب العرب ، ص٢٦٩.
(١٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ص١١٣ .
(١٥) ابن حزم ، المصدر نفسه ، ص٧٤.
(١٦) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبلل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٧٨ .
(١٧) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ص١٢٧ .
(١٨) المصدر نفسه ، ص١٢٤ .
(١٩) ابن قتيبة ، المعارف ، ص٦٠ .
(٢٠) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ص١٢٦ .
(٢١) ابن قتيبة ، المعارف ، ص٦٠ .
(٢٢) شيخو ، لويس ، شعراء النصرنية ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٨٠ ، ج٢ ص٢٢٢.
(٢٣) المسعودي ، مروج الذهب ، ج١ ، ص٧٠.
(٢٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ١٢٦ . ويذكر بعض الرواة أن أمية أخذ هذه الجملة (بأسمك اللهم) من شيخ كبير كان منطوياً على نفسه في برية نائية ، وذلك حين الح عليه قوم معه من قريش في عير لهم ، كانت قد نفرت ، بأن يجد طريقة لطرد حية كانت تظهر بين أبلهم فتنفرها ، فذهب الى ذلك الشيخ واستشاره

في طريقة تبعد عنهم أذى تلك الحية ، فأشار عليه باستعمال تلك الجملة ، فهربت الحية ونفرت منهم ، وقد كان سبب ظهور تلك الحية ان (حرب بن أمية بن عبد شمس) كان قد قتل حية ، فقررت زميلتها الانتقام من قتلتها ، فقتلته الجن انتقاماً منه بثأر تلك الحية ، وهربت الجن عند سماعها تلك الجملة ، واليه أشير كما يقول أهل الأخبار بقولهم : وقبر حرب بمكان قفر وليس قرب قبر حرب قبر . علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦، ص٤٨٤ .

(٦٥) علي ، المصدر نفسه ، ج٦ ، ص ٤٨١ .
(٦٦) الالوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ٢٥٦ .
(٦٧) الأغاني ، ج٤ ، ص١٢٦ .
(٦٨) الجاحظ : البيان والتبيين ، ج١ ، ص٢٩١ ؛ ابن دريد ، الاشتقاق ، ص٥٥.
(٦٩) ابن حبيب ، المحبر ، ص١٧١.
(٧٠) الألوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ص٢٥٦ .
(٧١) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٧٨ .
(٧٢) الألوسي ، بلوغ الأرب ، ج٢ ، ص٢٥٤ .
(٧٣) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٤ ، ص١٣٢-١٣٣ .
(٧٤) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص٤٩١ .
(٧٥) ابن حبيب ، المحبر ، ص٣٠٧ .
(٧٦) ابن الزبير ، نسب قريش ، ص٢٠٩ .
(٧٧) ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج١ ، ص٢٣٩.
(٧٨) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٤٧٧ .
(٧٩) ابن حبيب ، المحبر ، ص١٦٥.
(٨٠) المصدر نفسه ، ص١٧٠ .
(٨١) ابن دريد ، الاشتقاق ، ص٩٥ .
(٨٢) ابن حبيب ، المحبر ، ١٧٥ ..
(٨٣) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ٤٧٧ .
(٨٤) ابن حبيب ، المحبر ، ص١٧١ .
(٨٥) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج٢ ، ص ٢٤٣ .
(٨٦) ابن حزم ، جمهرة انساب العرب ، ص١٢٠ .
(٨٧) ابن قتيبة ، المعارف ، ص٥٩ .
(٨٨) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص١١٣ .
(٨٩) اليعقوبي ، تاريخ اليعقوبي ، ج١ ، ص٢٢٠ .

(١٩١) ابن حبيب ، المحبر ، ص١٧١ ؛ ابن هشام ، السيرة النبوية ، ج٢ ، ص٢٣٨.
(١٩٢) ابن دريد ، الأشتقاق ، ص٩١ .
(١٩٣) الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ص٢٧١ .
(١٩٤) الأصفهاني ، الأغاني ، ج٣ ، ص١١٤ ؛ علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ص٥٠٣ .
(١٩٥) الأصفهاني ، المصدر نفسه ، ج٣ ، ص١١٤ .
(١٩٦) ابن هشام، السيرة النبوية، ج١، ص٢٣٩؛ الأصفهاني، الأغاني، ج٣، ص٣٤١.
(١٩٧) ابن حزم ، السرة النبوية ، ج١ ، ص ٢٥٤.
(١٩٨) علي ، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج٦ ، ٥٠١ .
(١٩٩) الآلوسي ، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب ، ج٢ ، ٢٧١.